

كتب الرحلات مصدر من مصادر التاريخ الجزائري في القرن 12هـ/18م

- بكاري عبد القادر
- جامعة ابن خلدون - تيارت
- bekk1960@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2018-07-08

تاريخ الارسال : 2018-05-19

الملخص : شكلت الرحلة في حياة الشعوب والمجتمعات عاة والجزائريين خاصة ، عاملا هاما عبر مراحل التاريخ ، وازدادت هذه الأهمية قوة خلال العصر الحديث ، وخاصة ما كتبه ابن حمادوش والورتيلاني وأبوراس الناصري في رحلاتهم الحجازية خلال القرن 12هـ/18م ، لما احتوته من قيم متعددة ، وكثير من المعارف التاريخية والجغرافية ، الاجتماعية والثقافية وغيرها ، مما يدون الرحالة تدوين المعايين من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس خلال رحلاتهم . يأتي هذا المقال كمحاولة منا لإضافة لبنة في الدراسات السابقة ، والذي يتناول كتب الرحالة الجزائريين وما رصدوه من أحداث وصور للأقاليم التي وطنوها خلال رحلاتهم ، كما يبين أساليبهم ومناهجهم في تدوين الرحلات وتسجيل الانطباعات ، ولتعرف القيمة العلمية والأدبية للرحلات قيد الدراسة ، وهل يمكن اعتبار الرحلة نمطا خاصا من أنماط الكتابة التاريخية ، ومنهج معين من مناهج المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث؟

الكلمات المفتاحية : الرحلة حسين الورتيلاني ، ابن حمادوش ، ابي راس الناصري ، الكتابة التاريخية

Les livres de voyage sont une source de l'histoire algérienne au 12ème siècle de
l'Hégire / 18 AD

Résumé : le voyage a de tout temps constitue une étape importante dans la vie des des nations en général et des sociétés en particulier, notamment chez les algériens. celle-ci s'est accentué d'importance durant la période moderne. et ce en référence aux écrits de Ibn-hammadouche, El-wartallani, et Abou-Rass-Elnaciri pendant leurs pérégrination mecquoise au 12 siècle de l'hégire/18 siècle de l'ère chrétienne. Vu les valeurs multiples que recèlent leurs témoignages informationnels, connaissances culturelles et scientifiques, basées sur la prospection des lieux, de la nature, et de leurs contact quasi permanent avec les hommes de différentes cultures et aires de civilisation. notre étude considère en perspective le voyage comme un modèle spécifique pour l'écriture historique (de l'histoire) et une méthode spéciale parmi les méthodes d'investigations d'historiens d'algériens en période moderne

Mots clé : le voyage de El-wartallani ,Ibn-hammadouche, Abou-Rass-Elnaciri , l'écriture historique.

مقدمة:

يسجل الواقع التاريخي أن كتب الرحلات في الاقطار الاسلامية لم تحتل لنفسها مكانا في الانتاج الفكري حتى الفتح العثماني والحروب الصليبية، والجال ينطبق على كتب الرحلات الجزائرية هي الأخرى، والتي لم تحتل لنفسها مكانا في الانتاج الفكري التاريخي حتى أواخر العهد العثماني، بل وحتى عندما أخذت مكانها كان عدد الرحالة يعد بالقليل، والذين دفعتمهم الى المشرق خاصة الرغبة في أداء فريضة الحج، أو الاستزادة من العلم، أو حب الاستطلاع.

ولما كان التاريخ عند الجزائريين في تلك الفترة من الفنون الأدبية، لأنه كما قال ابن زيدان الذي ساق ابيات من ارجوزة لسان الدين ابن الخطيب "الحلل في نظم الدول" قوله: "أكبر مرشد للتخلق بمكارم الاخلاق... وأقوى معين ومساند على نمو قوة ملكة الإنشاء نظما ونثرا للإستشهاد بشواهد والاستمداد من فوائده لمن أبصر رشده وأراد الله هدايته"⁽¹⁾، فإن الجزائريين أبدوا إهتماما بالغا بأدب الرحلات، فكانت من أمتع الفنون الأدبية وأقربها الى أنفسهم، شأنهم في ذلك شأن الرحالة العرب والمسلمين على السواء، كما أن رحلات الجزائريين ورغم انها تاريخا لما أهمله التاريخ، فإنها إقتربت من أدب السير الذاتية، وخاصة عند ابي راس الناصري، ذلك أن العنصر الشخصي والانطباع الذاتي والتعبير عن الثقافة العامة المعاصرة من سمات أدب الرحلات.

وعليه، فإن في الوضع الراهن وفي مجال البحث العلمي التاريخي، وخاصة ما يتصل منه بالفترة الحديثة، تعتبر دراسة المصادر وكتب الرحلات على وجه الخصوص، ونشر اهمها نشرا دقيقا من اكثر الواجبات إلحاحا، لأن كتب الرحلات تعتبر مصادر مباشرة تتصف بالأمانة والنزاهة من جهة، كما انها تختزن فوائد جمة كالصور الأدبية، والمواقف الطريفة، والحكايات الغريبة التي تدعوا للإثارة والتشويق، حيث يكشف الرحالة عن ثقافة الآخرين، ويعبر عن تجاربه الشخصية التي واجهته أثناء رحلته.

من خلال هذا المقال سنلقي الضوء على أهمية كتب الرحالة الجزائريين، وأساليبهم ومناهجهم في تدوين الرحلات، وتسجيل الانطباعات، وخاصة ما كتبه ابن حمادوش والورتيلاني وأبوراس الناصري في رحلاتهم الحجازية كنماذج. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف، شكلت مجموعة من التساؤلات محور الإشكالية التالية: هل يمكن اعتبار الرحلة نمطا خاصا من أنماط الكتابة

التاريخية ومصدرا من مصادرها، ومنهجاً معيناً من مناهج المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث؟ وماهي القيمة العلمية والأدبية للرحلات قيد الدراسة في تاريخ الجزائر خلال القرن 12هـ/18م؟ وما هي الخصائص والمميزات التي تميزت بها على غرار كتب الرحالة المغاربة مثلاً ؟

أولاً: رحلة الورتيلاني والكتابة التاريخية في العصر الحديث

قبل التطرق لمواضيع الرحلة، ولمنهجها، وأسلوبها، وخصائصها، ولقيمتها العلمية، تجدر الإشارة الى القاء نبذة عن حياة الورتيلاني، هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن يحيى بن أحمد الشريف بن علي البكاي البجائي الحسني من شرفاء تافيلالت الورتيلاني (نسبة لبني ورتيلان)، وهي قبيلة أمازيغية بمنطقة بجاية ببلاد زواوة في المغرب الأوسط⁽²⁾. ولد عام 1125هـ/1713م، ونشأ في قبيلة بني ورتيلان من أسرة فقيرة دعامتها التقشف الصوفي، وأساسها الصلاح والشرف العلمي. اهتم بجمع العلوم الفقهية، وأصول الذكر على الطريقة الصوفية الشاذلية، وانشغل بالتفسير وكتابة القصائد، فخلف آثاراً عديدة معظمها شروح، وإن كان معظمها في عداد المفقود، من أهمها وأشهرها وأكبرها، رحلته المعروفة بالرحلة الورتيلانية، والموسومة بـ"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار". توفي عام 1193هـ/1779م بمسقط رأسه في قرية بني ورتيلان، ودفن في مقبرتها قرب زاويته، ولا يزال قبره قائماً الى يومنا هذا، ونفس التاريخ يؤكد عبد الهادي التازي⁽³⁾.

لقد اختار حسين الورتيلاني لرحلته عنواناً دالاً لغة واصطلاحاً، جذاباً يوحى بمضمونها، وهو "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وهي نتاج لرحلاته الحجازية التي قام بها، والملفت للنظر، أن بين كل رحلة وأخرى مدة ثلاثة عشرة سنة، مكنت الورتيلاني من ترتيب حلقات مؤلفه، وهو ما يذكره أبو القاسم سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي". للعلم، أن كل من ترجم للورتيلاني يثبت نسبة الكتاب له، وسأكتفي بواحد ممن عاشوا في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، عاصره ولازمه ودرس عليه الورتيلاني كثيراً، إنه محمد بن ميمون الذي يعتبر في نظرنا من الشخصيات الجزائرية التي تستوجب الوثوق بها فيما يرويه للتاريخ، وعن ذلك يقول: "من مؤلفات حسين الورتيلاني- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار-، وقد اشتهر هذا التأليف باسم الرحلة الورتيلانية"⁽⁴⁾.

إن المتصفح لمؤلف الورتيلاني يقف على محتويات الكتاب بالتفاصيل، ولعل ما يذكره تحت عنوان "تتمة" يوضح مقصده، فيقول: "إنما نذكر من ذكر الإخوان والمحبين، وبيان أوصافهم... وأما ذكر أوصاف الطريق وبيان المواضع، فإن فيه اعتبارا ودلالة على آثار قدرة الله تعالى... وشرف العلم بشرف معلومه، ولم يكن شيء أعز من بيت الله تعالى، ولا أعظم من الطريق الموصلة إلى رب البيت... لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الزاد، ويلقي الرفاق، ويصحب الرفقة، وينزل على الماء، ويتزود منه"⁽⁵⁾.

من المواضيع البارزة في الرحلة الورتيلانية هو الوصف الجغرافي، والسرد التاريخي الخاصين بالبلاد العربية التي مرت بها الرحلة، فقد امتاز الوصف الجغرافي عند الورتيلاني بالتأكيد على الجانبين البشري والطبيعي، وهذا ما وفر للرحلة جانبا علميا مهما، لأن الظروف الجغرافية البشرية متغيرة، في حين أن الجوانب الطبيعية ثابتة، وقد فرضت هذه التغيرات أن يكون للزمن دوره في إعطاء الأوصاف مكانتها.

لقد حرص الورتيلاني على وصف كل المناطق التي شاهدها وزارها بملاحظات دقيقة، غير أن زيارته لمصر وإقامته بها (يبدو أنه مكث مدة بمصر ليست بالقصيرة) تحمل بالنظر للأبواب التي خصها بالذكر في الرحلة انطبعا متفرداً ومتميزاً كُله كثير الإعجاب، فقد قال عنها: "وبالجملة فمصر أم البلاد شرقاً وغرباً، لا تستغرب شيئاً مما يحكى عنها من خيرٍ أو شرٍّ... ففي تغني عن الغير، ولا يستغني الغير عنها"⁽⁶⁾.

أما الموضوع الثاني في الرحلة، فهي سرد قائمة طويلة من التراجم للأولياء والعلماء والفقهاء الأحياء منهم والأموات، سواء بوطنه أو بالمناطق والمدن التي زارها خلال رحلته، فقد حصر اهتمامه أكثر على التراجم، وذكر الأحوال والأخبار على مدى فترات، بحيث لم يقتصر على فترة معينة، أو طائفة من الناس، كما لم يختص بمذهب من المذاهب، أو فن من الفنون، وعن دواعي تراجمه لصلحاء وطنه مثلاً، يذكر أنه أراد التنبيه عليهم على سبيل الإيجاز والاختصار، مع البيان والاستفسار، لأن شهرتهم تُغني عن ذكرهم، وتعظيمهم يقوم مقام بيانهم وتبيانهم وجميل آثارهم"، وكأني به وهو في هذه الحال، كحال الأدفوي الذي عرّف برجال مدينته ومكان نشأته ليتباهى بهم أمام رجالات باقي المدن الأخرى في كتابه، حيث قال: "ولما كان صعيد قوص الموضوع الذي منه نشأتي،

والمكان الذي إليه نسبتي، فأحببت أن أحيي ما مات من علم علمائها، وأنشر ما انطوى من فضل فضلائها... فالإنسان يكرم بكرامة أهله، كما يعظم بنبله وفضله⁽⁷⁾.

منهجه في الكتابة وأبرز مميزاته:

تعتبر الرحلة الورتيلانية من بين أبرز الرحلات التي شهدتها الجزائر في الفترة العثمانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، فهي رحلة شبيهة برحلات العياشي والناصري، فقد ظل مشدوداً إلى كتاباتهم، وفاسحا المجال واسعاً لما سبق ذكره من هؤلاء، فاشتملت على معلومات تتعلق بالمسالك والممالك، وذكر العلماء سواء الذين التقاهم وأخذ عنهم، أو الذين سمع عنهم، اشتهروا في مستهل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي⁽⁸⁾.

ولذلك، فإن أول ميزة في منهج الكتابة عند الورتيلاني، هي كشفه لنا عن نوعية وقيمة رحلته بوصفها مصدراً مهماً من مصادر تاريخ التاريخ الجزائري، فقد أظهر ميولاته القوية نحو علم التاريخ، وأكد على مكانته بين العلوم الأخرى، وأهميته في فهم الحياة، واستيعاب العبر من التجارب، وأنه العلم الذي يزيد من قيمة الإنسان وفضله، وإن منزلة العالم، إنما تقاس بمدى إلمامه بالتاريخ وأخبار الأمم والحضارات، بل وأكثر من ذلك، إذ هو الطريق وبيانها كبيان الطريق الموصلة إلى الله تعالى، لأن الرحلة توصل إلى بيته، بل توصل إلى رضاه، وأي علم أشرف من هذا العلم وفائدته ظاهرة، هذا وإن علم أمور الرحلة وبعض علم التاريخ يرجع إلى علم السيرة النبوية، فهي تجمع عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، بطرق علمية وثبوت قوي، لا يترك مجالاً للشك في وقائعها وأحداثها الكبرى، خاصة وأنها أصح سيرة لتاريخ الرسل والأنبياء⁽⁹⁾.

إن رحلة الورتيلاني نسجت على منوال السلف من حيث المعنى لا المبنى، لأن كل الرحالة المغاربة متشابهون على وجه التقريب في مشاربهم الثقافية، فهو يستعمل الأسلوب القرآني في العديد من العبارات، داعياً إلى التحلي بالصفات الحميدة، لأن فيها الاعتبار والدلالة على قدرة الله تعالى، من ذلك مثلاً دعوته للصبر عند البلاء، مذكراً بصبر أولوا العزم من الرسل ليسهل حمل أعباء المصائب، ويستشهد بالأحاديث النبوية في الكثير من المناسبات، رغبة أن يعمل بها من وقف عليها، ويوظف الشعر كوسيلة في الدلالة على الحقائق التاريخية والأدبية، سواء من نسج غيره أو من

وحيه، ومن ذلك مثلا، الموقف الذي يتخذه من دُعاة النسب، بقوله " والناس في أنسابهم مصدّقون... إذ الأنساب كالحيازة في الأموال" (10).

إن أسلوب الورتيلاني واضح وبعيد عن التكلف، متضمنا لمفردات وعبارات متداولة عند الجميع، وإن كان لا يخلو من الطلاوة والتنميق عند تحلية أفاضل الأعلام الذين ترجم لهم، كما أنه يضحى بكل قوالب الأدب بعض المرات عندما يعتني بتوضيح الوقائع التاريخية. حاصله أن الرحلة الورتيلانية ليست نصا تاريخيا فحسب، ولا هي نص أدبي فقط، بل هي كذلك متن يحتجز أفكار الشيخ الإصلاحية، ومواقفه الصريحة في مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والفقهية.

أهمية الرحلة وقيمتها العلمية والأدبية:

إن كتاب "نزهة الأنظار" هو في الحقيقة كتاب في التاريخ، حيث كان المؤلف يدون ويسجل كل ملاحظاته مما شاهده أو سمعه في أوراق وكتيبات، وبعد عودته إلى الجزائر، شرع في ترتيبها وتنظيمها وكتابتها، فتحوّلت رحلته الحجازية العلمية إن صح التعبير إلى أدب مكتوب على شكل مذكرات يومية، تناول فيها المؤلف بالوصف والتقرير انطباعاته ومشاهداته خلال مشوار الرحلة، سائراً على نهج ابن جبير الذي أصّل لهذا اللون من الأدب (11).

ومن هذا المنطلق، إذا اعتبرنا أن الرحلات الحجازية ظاهرة تاريخية واضحة وجليّة، فإنها أيضا ظاهرة أدبية وفن قائم بذاته على حد تعبير صاحب كتاب "أدب الرحلة عند العرب"، وهذا ما ترصده لنا الرحلة الورتيلانية التي تمثل لوحات فنية، ومشاعر حميمة، وخلجات وجدانية فياضة، خواطر وانطباعات، وصور ترصد المراتب، حدس شاعري وابتكاراتي، وجمل في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة، فيأتي بالمتع والمدهش، مرايا تتعكس، أماكن جديدة تستكشف، يرتادها الحجاج المغامرين العاشقين للطبيعة، وكأنهم يتأملون أنفسهم في مرايا... تلك هي رحلة الورتيلاني. ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان الذات، واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معايشة المدن والأنهار والجبال، وترسم في صياغات جديدة للوجدان، والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان، فالرحلة سفر في الأرض وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود (12).

شكلت الناحية الاجتماعية أيضا جانبا لا يستهان به في كتاب الرحلة، فقد سجل أخبار الناس، عاداتهم وتقاليدهم، وعلى الأخص أهل الحجاز، حيث انصب الورتيلاني على إظهار الجوانب الحسنة للمجتمع الحجازي وباركها، والمشهد الذي يذكره عن أتباع الشيخ العيدروسي رضي الله عنه السالكين طريقته، نموذجا فيقول: "يعملون هنالك سماعاً وقراءة وتلاوة، ويجتمع فيه خلق كثير، وقد فرش المشهد كله وما حوله، وأعدت للحاضرين أطعمة وأشربة، ويستكثرون هنالك من المصاييح، فهو من المشاهد المشهورة بمكة، والمزارات المعظمة"، كما أظهر الجوانب السيئة وانتقدها، ومن بين المشاهد التي أنكرها، قوله: "ومن جملة خرافاتهم المتعلقة بتلك الليلة في ذلك: أنهم يأخذون معهم نوى التمر، فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة، ويزعمون أن من دفن شيئا حصل له في تلك السنة بعدده ريالاً أو دنانير⁽¹³⁾ .

بقي في الأخير، الإشارة إلى ملاحظة، وهي أن المنهج نفسه اتبعه الرحالة المغاربة والجزائريون، ومنهم "محمد الحضيكي السوسي" (ت1189هـ/1775م)، و"الحسين الورتيلاني"، بحيث أوردوا جملة من الأخبار في جوانب معرفية مختلفة، تاريخية وجغرافية، وقضايا فقهية، وبعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، والعادات والتقاليد التي لاحظوها أثناء رحلاتهم، ومما أستوقفني مثلاً، هو رصد كلا من "محمد الحضيكي" و"حسين الورتيلاني" لظاهرة خروج النساء بمنطقة عين ماضي بالأغواط في الجزائر إلى الأسواق للتجارة والاختلاط بالرجال، واستنكارهم لها، وهو الأمر الذي يدعونا إلى احتمال أن الرجلين التقيا في إحدى الرحلات، خاصة وأنهم عاشوا في نفس الفترة الزمنية⁽¹⁴⁾ .

ثانيا: رحلة "ابن حمادوش" والكتابة التاريخية:

هو أبو الحسن عبد الرزاق بن الحاج محمد بن امحمد المعروف بان حمادوش الجزائري الدار، الأشعري عقيدة، المالكي مذهبا، الشريف نسبا، مؤرخ، نسابة، وطبيب⁽¹⁵⁾ . ولد سنة 1107هـ/1695م بمدينة الجزائر، وهو ما يذكره المؤلف نفسه، بقوله: "ثم الأجه أحمد عام 1107 سبعة ومائة وألف. وفي هذه السنة في رجب كانت ولادتي"⁽¹⁶⁾ . تمثلت ثقافته في ثقافة العصر (العلوم الشرعية واللغوية)، ولكنه انفرد عنهم بالتخصص في الجانب العلمي، ومال إلى العلوم العقلية وخاصة الطبية منها، فقد ألف في الطب والحساب والفلك والرياضيات والمنطق،

كما لم ينقطع عن الاهتمام بالفقه والتصوف والأدب والتاريخ. يذكر أبو القاسم سعد الله ومن ترجم لابن حمادوش انه عاش الى حوالي التسعين سنة، وأنه توفي في مكان وتاريخ مجهولين، ولكن اغلب الظن أن المنية وافته وهو بالمشرق بين سنوات 1197-1200 هـ / 1783-1786 م⁽¹⁷⁾.

إن رحلة "ابن حمادوش" تعتبر من الرحلات المفيدة تاريخيا وأديبا وعلميا، فقد تعرض للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى الطبيعية كظاهرة كسوف القمر. يذكر أبو القاسم سعد الله محقق الرحلة فائدتها، بقوله: "وإذا كان علماء المسلمين قد اهتموا برحلة ابن حمادوش لما فيها من أخبار سياسية أو دينية أو اجتماعية، فإن العلماء الأوربيين قد اهتموا بآثاره العلمية على الخصوص"، ومما يزيد في فائدتها أن ابن حمادوش كان شاهدا على الأحداث بأم عينيه⁽¹⁸⁾. وحسب فرانز روزنتال أن المؤرخ الذي يشاهد الحدث تكون رواياته أرجح من معاصره الذي ينقل الأخبار مشافهة عن طريق السماع، وأن أهمية أي تاريخ إسلامي كمصدر تاريخي يقررها قدمه وقربه من الحوادث التي يصفها، أو استخدامه لكتب مفقودة قديمة أو قريبة من المعاصرة⁽¹⁹⁾.

لقد أخذ الجانب التاريخي قسما كبيرا من الرحلة، مثلما أخذ التجوال والترحال قسما من حياته، فركز على التاريخ المحلي المغاربي والجزائري خاصة خلال العهد العثماني، وهي الفترة التي عاصرها تقريبا، ذكر مراحل حكم الباشوات بالجزائر ترتيبا زمنيا حسب المدة التي قضاه كل باشا في الحكم ومن جاء بعده، دون تقديم أية معلومات أو استفسارات، كما تعرض لحكام تونس والمغرب الأقصى، تخلل ذلك بعض الأحداث التي عايشها، ومنها على سبيل المثال: ثورة زواوة بالجزائر التي جرت في ربيع الأول من سنة 1158 هـ / 1745 م على القايد محمد قائد سباو، والتي انتهت بالقضاء عليهم، وتشيتيت شملهم بواسطة قوة الصبايحية ونحو مائتين من اليولداش، وثورة الباشا أحمد بن علي الربيقي قايد تطوان على مولاي عبد الله في فاس المتوفي سنة 1156 هـ / 1743 م، وقد شهد بنفسه هذه الثورة وكاد أن يذهب ضحية لها وهو بالمغرب الأقصى⁽²⁰⁾.

أما التاريخ الخارجي، فيتعرض فيه إلى جزء من تاريخ الدولتين الأموية والعباسية خاصة، ذاكرة بعضا من خلفاء بني العباس على طريقة التراجم، مبتدءا بأبي جعفر المنصور ومنتها بالراشد. كما يتعرض لسلطين الدولة العثمانية من أولهم وهو "عثمان خان" الذي تولى الخلافة العثمانية عام 641 هـ / 1244 م إلى الخامس والعشرين من ملوكهم وهو "محمود خان" الذي تولى الخلافة

عام 1143هـ/1730م، وهي السنة التي انتهى فيها ابن حمادوش من كتابة ذلك، وعن ذلك يقول: "خامس وعشرين من ملوكهم السلطان محمود تولى عام 1143هـ، وهو باق إلى الآن...فهذه ملوك بني عثمان، وليسوا هم من ذرية عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإنما هم من ذرية هذا التركي الذي توصل إلى الملك"⁽²¹⁾.

أخذ الجانبين الاقتصادي والاجتماعي حيزا لا بأس به من الرحلة من خلال ذكره مثلا لحصاد الشعير، وعملية الانتقال على القوارب المصنوعة من حزم البردي، ونوع العملة المتداولة بتطوان في عهده وهي "الموزونة"، وضريبة المكس على السلع بميناء تطوان، كما يذكر بعض العادات والتقاليد الاجتماعية في المواسم الدينية، ومنها عادة أهل الجزائر ليلة القدر، وقد حضر ذلك بمدينة الجزائر، وعن ذلك يقول: "وهذه عادة الجزائر دائما، فيذهب الناس إلى خارج باب الواد، إلى قبر سيدي عبد الرحمن الثعالبي، نفعا الله ببركاته، فيحضرهم ختم البخاري أيضا على هذه الصفة، ويتهيأون إلى العيد. وأنا حضرت في الموضوعين مع عامة المسلمين"⁽²²⁾.

منهج الكتابة عند ابن حمادوش وأبرز مميزاتة:

إن أهم ما يميز هذه الرحلة عن الرحلات الجزائرية الأخرى هي كونها رحلة مغربية علمية وتجارية، وليست مشرقية حجازية، كرحلة حسين الورتيلاني المليئة بالقصص، أو كرحلة أحمد المقري ذات التفاصيل التاريخية الواسعة، أو حتى كرحلة أحمد بن عمار التي لجأ فيها إلى الصنعة الأدبية. أسلوبه اللغوي سهل وبسيط جدا، وعباراته فصحة، وكثيرا ما يسوق الجملة سوفا عاميا لا يخضع لقواعد الإعراب، كما أن طريقة عرض الحوادث كثيرا ما يتخللها الانتقال والاستطراد ثم العودة إلى الموضوع الرئيسي، ويظهر ذلك مثلا عندما يرد طريقة قراءة البخاري في الجزائر تحت عنوان "العودة إلى قراءة البخاري" فيطرح بعض المعالم الزمانية والموضوعاتية، يتخلل ذلك عنوانا لحكاية العنقاء مع سيدنا سليمان، وفي ذلك نتساءل عن سبب إدراج ابن حمادوش هذه القصة في هذا الموضوع؟ من المعلوم أن القصة تلخص قاعدة وهي: "لا حيلة في دفع قضاء الله تعالى وقدره لا بفعل ولا بعلم، وعلمه السابق الكائن من خير وشر"، وبغض النظر من أن هذه القصة واقع أم خيال، فإن الأسطورة كما ذكرها المؤرخ هيرودوت كان لها صدى واسع في التراث الشعبي القديم

لدى الكثير من الشعوب القديمة كالمصريين والإغريق والفرس والفينيقيين، وما زال لها تأثير في الأدب والثقافات والكتابات المعاصرة كرمز للتجدد⁽²³⁾.

ومن بين الميزات أيضا أن الرحلة تفتقر إلى وحدة الموضوع والترابط العضوي، فهي كشكول، فيه خليط من الحوادث والأفكار والنقول والمذكرات، مليئة بالاستطراد الثقيل، بمعلومات غير منسقة، ولا يجمعها إلى بعضها من حيث المنهج سوى الترتيب الزمني، ذلك أن المؤلف يسير على طريقة الحوليات أو السنوات التي يرتب من خلالها الأحداث المنتهية ليبدأ في ذكر أحداث سنة جديدة، باستعمال عنوان "دخول محرم" والعبارة التالية تبين ذلك قوله: "وفي يوم الجمعة سابع عشر أي الجمعة ختمت رسالة القشيري، وهذا آخر هذه السنة (محرم 1159) لدخول محرم فاتح عام 1160-ينير فاتح سنة 1747 مسيحية، كلاهما بالخميس، اتفقا مدخلا"⁽²⁴⁾.

يستعمل ابن حمادوش في رحلته التاريخ الهجري الإسلامي، وفي معظم الأحيان يذكر معه التاريخ الميلادي الشرقي أو الفلاحي، وأحيانا يذكر أيضا التاريخ الإسكندري، ويستعمل كلمة عجمي للتاريخ المسيحي. وعن استعمال هذه التواريخ يذكر التوضيح التالي: "وفي يوم الجمعة سادس وعشرين ذي القعدة ابتدأت تأليفا في علم الفلك، جمعت فيه غريب ما أعلم. فمنها سبعة تواريخ فيه كلها تعلمتها: العربي والمسيحي والإسكندري، كنت تعلمتها قبله، (وهي التي يستعملها في كتابه الرحلة)، وزدت فيه الفارسي والمكي والقبطي والعبري". أما العبارة التالية فهي أصدق دليل على استعمال هذه التواريخ والتي يقول فيها: "الجزء الثاني من رحلته (لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال) مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743 مسيحية، وخامس شهور سنة 2054 أسكندرية"⁽²⁵⁾.

ولما كان الشعر العربي بمختلف عصوره يعتبر مصدرا قيّما من المصادر التي تكشف كثيرا من الجوانب التاريخية والاجتماعية وحتى الدينية، ولأنه السجل المحفوظ المتداول بين الناس، فإن ابن حمادوش قد اعتمد عليه كثيرا، واستخدمه بصفة عامة، وكان عنوانا رمى من خلاله إلى تحقيق عدة أهداف، أهمها:

-تدعيم مصادره، وتوضيح الحقائق التاريخية التي ذكرها بإدراج الشواهد من الشعر عليها، والأمثلة على ذلك كثيرة في مؤلفه، منها: إثبات إجازة الشيخ الحسن بن مسعود اليوسي له قراءة صحيح البخاري من أوله إلى آخره.

-دعم وإثبات الآراء التي يميل إليها، أو آرائه الخاصة، أو آراء بعض العلماء الذين يوافقهم أو يعارضهم، مثل ما ذكره في مسألة حل اللغز الذي مطلعته "ألا أيها الغادي على ظهر أجود..." بعدما طرح آراء بعض العلماء ومنهم الشيخ محمد الشافعي التونسي الذي عارضه بقوله أنه بعيد عن الصواب، في حين يورد شعرا لسحنون الونشريسي في اللغز يؤيد به رأيه⁽²⁶⁾.

-إيضاح بعض المعتقدات والأساطير الخرافية، أو القصص والحكايات التاريخية أو تفنيدها، ومثال ذلك ما ذكره ابن حمادوش من بعض اللطائف لأخبار الموسيقى والمغنين، كون أن أول من اتخذ العود في الموسيقى هو لأمك بن متوشلخ ابن خنوخ بن برد بن مهيابيل حينما اتخذ من بعض أوصال طفله بعد موته أدوات وأوتار، ثم ضرب به وناح عليه فنطق العود مجاوبا له على شأنه، فقال الحميدي:⁽²⁷⁾

وناطق بلسان لا ضمير له كأنه فخذ نطيت إلى قدم
يبدي ضمير سواه في الحديث كما يبدي ضمير سواه الخط بالقلم

كما نلاحظ أن الشعر لا يكاد يختفي في أثناء عرضه المادة التاريخية خاصة في الأجزاء المتعلقة بطرح مقاماته وحديثه عن مشايخه، وفي استشهاده بقصائد الورع والزهديات والثناء، وفي هذه الأجزاء يبرز الطابع الأدبي لابن حمادوش بصورة واضحة.

لقد شكلت الرحلة رافدا مهما من روافد "ابن حمادوش"، وأضفت على كتابته وأحكامه أصالة وحيوية، واستفاد منها في منهجه التاريخي، حيث اكتسب دقة الملاحظة، لأنه انطلق في كثير من أحكامه وملاحظاته من مبدأ المشاهدة والمعاينة المباشرة، ومن لقاءاته بالعلماء الذين قابلهم في أثناء رحلاته وتنقلاته بين المدن والبلدان المتعددة، ومن الكتب المختلفة التي عاد إليها. كما كانت الرحلة الميدان التجريبي الطبيعي الذي استمد منه رحلاته وأسفاره وما وقع له فيها، وما تحصل له من تجارب وملاحظات، لأن العصر الذي عاش فيه "ابن حمادوش" كانت فيه الرحلة لطلب العلم من

المكونات الحقيقية لطالب العلم، إذ لا يستطيع أن يلم بمختلف الفنون والثقافات وهو ثاو في قطر من الأقطار، فلا بد له أن يشد الرحال ليتصل بالعلماء كي يستفيد من علمهم، ويدرس على أيديهم، ويسمع منهم، وصدق ابن خلدون وهو يقول: "والإنسان الذي يتشوف بفطرته إلى العلم لا بد له من الرحلة في طلبه"⁽²⁸⁾.

إن رحلة ابن حمادوش لم تخلو موضوعاتها من طرائق وصفها للأحداث بشكل أو بآخر، أو في تفسير للسلوكيات التي رآها أو سمعها من أناس مربلادهم، أو في مبادلاته التجارية التي كان يقوم بها، وهكذا نجده الرحالة العالم، والرحالة الحاج، والرحالة التاجر، وإذا كان مثلا الرحالة التاجر أحيانا يختلف في درجة قبوله لتفسير الظواهر من رفضها عن الرحالة العالم، والجال هنا مثلا ينطبق على المقدسي (ت380هـ/990م) الذي خرج تاجراً، وردت الإشارة عنه في مقدمة كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" أنه لا يُعلق أو يُشكك في بعض الروايات، رغم أنها لا تتفق في العديد من مفاصلها مع الثوابت التاريخية والعقلية، فإن ابن حمادوش جمع تلك الوظائف كلها تقريبا، لتبقى مسألة التباين المعرفي لدى الرحالة أساسا في كثير من الأحيان في تحديد طبيعة قبوله وتحليله لكل ما يشاهد أو ما ينقل⁽²⁹⁾.

ولكن، من شدة نهمة للعلم وحبه للعلماء، مع ما كان يعتمل في نفسه من حب للوقوف على الحقائق بنفسه، لم يكتف بالاطلاع الواسع على ما كُتِبَ وأُلف، ولكنه أراد أن يقرن ذلك بالمعاينة المباشرة والمشاهدة الحية، فساق قدمه في كل أفق، فلم يكن مثلا كالجاحظ الذي لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار، واقتصر على كتب الوراق، ولا كالطبري الذي رحل إلى مصر وعاش فيها مدة من الزمن، وخالط علماءها، وكتب عن تاريخها ولكن كما ورد عن أهل الأخبار لا كما رأى وسمع، لذا فإنه دخل مصر وخرج منها وكأنه لم يذهب إليها، وإنما كان كالمسعودي الذي جاب الأقطار وضرب في الآفاق، واستخرج كل دقيق من معدنه، وأثار كل نفيس من مكمنه، تارة على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة"⁽³⁰⁾.

ومن هنا فإنه باستطاعتنا القول، أن ابن حمادوش كان من الرحالة الجزائريين الرواد في هذا المجال، حيث أن مؤلفه التاريخي "الرحلة" قد اصطبغ بصبغة المؤرخ المتحرك الحي الذي يرى الأشياء الجامعة المهمة التي لا يؤبه بها، فيكتب عنها، ليبعث فيها الحياة والحركة ويجليها للعيان، ومما هيا

له ذلك، الاستعداد النفسي والعقلي، ونفس لا تمل المطالعة والتسجيل، وعين فاحصة دقيقة النظر، ولسان لا يني عن السؤال والجدل، ورجلاً تحمله إلى حيث شاء من ذوي الصلة المباشرة بما يريد أن يعرف.

أما المورد الثاني من موارد ابن حمادوش والذي كان من أقوى الاهتمامات التي استحوذت على فكره، هو لقاء العلماء، والتحدث معهم، ومناقشتهم فيما يريد أن يتوصل إليه من معلومات، ولهذا نراه بمجرد أن وطأت قدماه أرض تطوان بالمغرب الأقصى كان حريصا على الوصول إلى أماكن العبادة فيها، لأنها غالبا ما تكون ملتقى للعلماء، وعن ذلك يقول: "فدخلت تطاون في أول الساعة السابعة وصليت الظهر بها جماعة، فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورززي، فسلمت عليه"⁽³¹⁾.

ومن خصائص ومميزات الكتابة عند ابن حمادوش أنه تطرق في مؤلفه إلى ذكر معظم أسماء العلماء إن لم أقل كلهم، الذين التقى بهم، أو حضر دروسهم، أو نقل عنهم، وبين رأيه فيهم، ومدى ثقته بهم، وإعجابه ببعض، وانصرافه عن البعض الآخر، ومن أبرز العلماء المغاربة الذين قابلهم ابن حمادوش وحضر دروسهم الشيخ "محمد البناني"، وكان لقاءه به في مدينة تطوان سنة 1156 هـ / 1743 م، ذكره "ابن حمادوش" كثيرا في مؤلفه، وفارقه وهو راض عنه، خصه بقصيدة مدحه فيها. أما من العلماء الذين حضر دروسهم وناقشهم وتبادل الآراء معهم، الشيخ "أحمد الورززي"، والذي ناقشه في مسألة "أفضلية الملائكة والرسل" ولكنه لم يقتنع بإجابته، فانصرف عنه ولم يعد إلى مجلسه أصلا، سائلا له الهداية إلى الحق، وظنه به انه يميل إلى مذهب الجرابية.

أما المورد الثالث الذي استفاد منه "ابن حمادوش" فهو الكتب، وهو الذي صرح برجوعه إليها في ثانيا مؤلفه، فهي مؤلفات متنوعة مختلفة، بعضها في التاريخ، وبعضها في علوم الرياضيات والفلك والطب، وبعضها في التصوف وفي الفلسفة وغير ذلك من الفنون، حيث لم يكتف "ابن حمادوش" بسرد مصادره التي اعتمد عليها، وإنما جاوز ذلك إلى الحكم على بعضها ونقدها نقدا علميا صحيحا، والأمثلة من ذلك كثيرة منها: تعليقه على رأي الشافعي التونسي حول مسألة "السبعة الذين خلّقوا معا"، فأظهر خطأه، وصوبه بقوله "فأنت ترى كيف أن الشافعي التونسي اضطرب في المعنى... وأقرب للصواب ما قلت، والله أعلم"⁽³²⁾. وأحيانا أخرى يعلق على المؤلف ويبين طريقته في

التأليف، ومزايا مصنفاته، وتأثيره على المؤلفين الآخرين الذين جاؤوا بعده، وهو الحال بثاليس المملطي، وأحيانا ثالثة يبين لماذا وصلت بعض المؤلفات إلى مرتبة عالية، ودرجة رفيعة من الكمال، مثل قوله عن مصنفات "الفارابي": "فجاءت كتبه المنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية الغاية الكافية"⁽³³⁾.

ومن هنا نرى كيف أن "ابن حمادوش" كان حريصا على عرض مصادره وتحليلها وبيان قيمتها الموضوعية، والدلالة على فضل أصحابها وبيان منزلتهم من العلم. فقط أريد أن أنبه في هذه المناسبة إلى أن "ابن حمادوش" في مؤلفه قد ذكر عددا كبيرا جدا من المؤلفات والكتب، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة رجوعه إليها كلها بنفس الدرجة والاهتمام، فقد يذكر بعض المؤلفات عدة مرات للدلالة على أهميتها، بينما يذكر البعض الآخر ذكرا خفيفا يكون قد سمع به أو قرأ عليه شيئا، ولهذا فليس كل ما ذكر من هذا القبيل يعتبر مصدراً من مصادر ابن حمادوش، وأختم بما قاله أطفيش في شأن كتاب "السير" "لأحمد الشماخي": "يظن الذين لاحظ لهم من التاريخ أنه كتاب غير مفيد، ولكنهم لا يعلمون أنه ثروة ومادة أخذت من كل ناحية بسبب"⁽³⁴⁾، لأقول نفس الكلام في شأن كتاب "الرحلة" "لابن حمادوش".

أبوراس الناصري والكتابة التاريخية من خلال رحلته:

هو "محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل"، وكنيته بأبي الطاهر، وقيل أنه اشتهر "بأبي راس" لضخامة رأسه، أو لكثرة وسعة معلوماته وسرعة حفظه. ولد أبو راس الناصري بمنطقة تقع بين جبل كرسوط وهونت بقلعة بني راشد قرب مدينة معسكر عام 1150 هـ / 1737 م⁽³⁵⁾، وتوفي يوم الأربعاء الخامس عشر من شعبان سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف هجرية، الموافق لـ الثامن والعشرين أبريل سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة وألف، عن عمر يناهز التسعين سنة، يرجح أنه توفي بمرض الطاعون الذي ضرب المنطقة في ذلك الوقت، حيث يذكر صاحب كتاب "أنيس الغريب"، قوله: "مات حافظ العصر أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعسكري بوباء الطاعون..."⁽³⁶⁾.

لأشك أن المتصفح لكتاب "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" يدرك تمام الإدراك أنه عبارة عن سيرة ذاتية، تحدث فيها أبو راس الناصري عن أهله، وبيئته، وشيوخه،

وعلموه، وأسفاره، ومؤلفاته، وعن العلماء الذين لقيهم بالمغرب والمشرق العربيين خلال رحلاته وتنقلاته، كما يكشف الكتاب عن معلومات كثيرة وهامة منها على سبيل المثال: العلاقات بين الدول وحدودها الجغرافية كالعلاقة بين الجزائر والمغرب الأقصى في عهد الدولة السعدية، وعن علماء عصره الذين تناظر معهم، وعن مستواهم العلمي، ومن بينهم علماء الحركة الوهابية بالحجاز، وأخبار عن المذاهب الدينية الأربعة.

الكتاب مقسم إلى خمسة أبواب وهي:

الباب الأول: يسميه بابتداء أمري، وفيه يعرض مولده ونشأته، نسبه النبوي وشرفه السي، والمنتى الحسيني، والبيت الكريم العلوي، فهذه عنده من المقدمات التي لا تؤخر، ومن الكنوز التي يُنفق منها ويدّخر.

الباب الثاني: في ذكر شيوخه النافضين عنه قشب أساخه شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة، يذكرهم بخصالهم، ويعدددهم بمراتبهم، فيقول عن ذلك: "أول شيوخي والدي الشيخ أحمد، قرأت عليه وأنا صغير جداً... إلى أن يصل به المقام، فيقول "وقد اجتمعت بعالم الدنيا على الإطلاق وأديها بالاتفاق السيد إبراهيم الرياحي"⁽³⁷⁾.

الباب الثالث: يذكر فيه رحلاته للمشرق والمغرب الأقصى، ولقاءاته بالعلماء الأعلام، وما جرى له معهم من المناظرات والمراجعات. يرتب رحلاته زمنيا ومكانيا، بحيث يبدأ برحلاته داخل الوطن ذاكرًا المدن التي زارها كالجزائر العاصمة ووهران وتلمسان وقسنطينة، ثم ينتقل إلى الدول التي زارها تباعا كمدن فاس وتطوان بالمغرب الأقصى، وتونس، ومصر، والحجاز، والشام، وفي كل منطقة دخلها إلا ولقي علمائها وفقهائها ومفتيها.

الباب الرابع: خصصه للأسئلة وما يتعلق بها، مصورا مجالس العلماء بالأبهي من الروض الآنق، وبالزهد الذي سارت به الركبان، وبالمحاسن التي يقصر عنها اللسان، أعلام أجلة وعلماء ملة، مرددا في كل مرة: "سئلت وقلت".

الباب الخامس: يسميه بالعسجد والابريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز، ومحتواه قائمة مؤلفاته التي ألفها حسب العلوم ومنها: علوم القرآن، والتصوف، والتاريخ، القصائد

الشعرية، وغيرها. وقد ذكر أنه عدّد تأليفه وجملة تصانيفه اقتداءً بالإمام السيوطي الذي عدّ ما ألف في كتابه "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، فكانت نحو الثلاثمائة وعشرة، مؤكداً أنه لا أحد أكثر من التصانيف بعده منه.

منهج الكتابة التاريخية عند أبي راس الناصري

من المعلوم أن المؤرخين العرب والمسلمين ألفوا كتبهم بأشكال مختلفة، ودونوا رحلاتهم بمناهج متنوعة تنوع أهداف رحلاتهم، ولما كان أبو راس الناصري واحد من هؤلاء الرحالة البارزين خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي الذين اهتموا بالتدوين التاريخي، وأخبار الجزائر والعالم العربي والإسلامي، كان من الضروري معرفة المنهج الذي اتبعه في مؤلفه "رحلتي ونحلي".

الواقع أنا أبا راس الناصري لم يستحدث منهجا خاصا به، فهو كسابقه من الرحالة المؤرخين اتبع المنهج الذي اعتمد عليه أغلب المؤرخين الذين عايشهم ودونوا رحلاتهم، وهو الذي قال: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة الإمام ابن رشيد السبتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي... وكذا رحلة الشيخ أحمد بن الناصروغيرهم"⁽³⁸⁾.

وعليه، فإن أبا راس انتهج منهجا واضحا في رأينا، اعتمد فيه على سرد الأحداث، ونقل الأخبار والروايات التاريخية، وحاول تحقيق قاعدة "الرحلة جزء من التاريخ" من خلال ربط التاريخ برحلته الخصوصية، لأن التاريخ البشري في نظره هو تجربة فردية وأيضا جماعية، وهو ما يوضحه عبد الله العروي نقلا عن فون رانكة حين يقول: "إن التاريخ تاريخ لا يعود، وكل عمل له خصوصية ذاتية. لكن هذه الخصوصية لا تنفي وحدة التاريخ الكوني الذي يمثل تجليات الوعي الإنساني، الوعي بأن الإنسان حربا أنه تاريخي، وتاريخي بما أنه حر"⁽³⁹⁾.

إن رحلة أبي راس الناصري هي تسجيل لرحلتين قام بهما، تفصل بينهما مدة عشرين سنة، وهي مدة كافية لحدوث تغييرات كبيرة على جميع الأصعدة، ولكنه كتبها في شكل مذكرات، وعني فيها بإسهاب بتدوين كل الجوانب، العلماء الذين اتصل بهم في البلدان التي زارها، والدروس التي حضرها، والشيخوخ الذين استجازهم، وما سمع من أحاديث، وما روى من الأشعار. وعموما يمكن إدراج رحلة أبي راس الناصري ضمن الرحلات المغاربية التي اتخذت طابعا فهرسيا، وهي التي

استخدمها الأندلسيون والمغاربة على السواء للتعبير عن الكتب التي جمعت أسماء العلماء، والأسانيد والمرويات، والقراءات على الشيوخ، والمصنفات المجازة ونحو ذلك⁽⁴⁰⁾.

من الطبيعي أن تنفرد كل رحلة بخصائص تميزها عن غيرها، ومنها التحديد الزمني والمكاني، حيث اهتم معظم الرحالة بتحديد تواريخ الأحداث، وأوقات السفر بالسنوات والشهور، بل بالأيام والساعات بدقة تامة عند البعض، فابن جبير الأندلسي مثلا أرخ بالتاريخ الهجري والميلادي، وبأسماء أيام الأسبوع، والأشهر العربية والإفريقية على شاكلة طريقة المذكرات الشخصية، ومما جاء في مقدمة رحلته يوضح ذلك: "وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركة شرفها الله بالتسيير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي..."⁽⁴¹⁾، ومنهم من اكتفى بالتاريخ الهجري فقط كالمقري في رحلته إلى المغرب والمشرق، بينما لا يعتمد أبو راس التاريخ في رحلته إلا نادرا.

لم يكتفي أبو راس الناصري بالتحديد الزمني، بل صور حياة القبائل التي عَبرَ أراضيها، والمراحل التي قطعها في رحلته، والمسافات بين كل مرحلة وأخرى، والمناطق والأماكن والمدن التي دخلها، وكل ذلك باستعمال مفردات منها "ولما دخلت" و"رحلت" و"ذهبت"، وهذا ما يجعل القارئ يدرك أن الأدب والجغرافيا اجتماعا سويا بتوافق فذ في تأليف أبي راس الناصري المتمكن من أدوات الرحلة بجدارة.

إن الوقوف على رحلة أبي راس الناصري تدفعنا إلى معرفة بعض الخصائص والمميزات التي تميزت بها، ومنها أن الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهذه هي إحدى خصائص الكتابة الرحلية عامة، وعند أبي راس الناصري خاصة، وفي هذه الحال يكون الراوي حاكيا وموضوعا للحكي، فهو يكون حاكيا عندما يصف، ويكون موضوعا للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي (الرحالة) معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد⁽⁴²⁾.

أهمية الكتاب وقيمه العلمية:

إن الطبيعة الغنية لرحلة أبي راس الناصري جعل دراستها تتجه اتجاهات مختلفة تبعا لاهتمام الدارسين والباحثين، فالرحلة على مستوى المضامين احتوت على معارف متنوعة، تاريخية

وجغرافية، دينية وأدبية، وحتى اثنوغرافية، وعلى مستوى الأشكال نجد فيها السرد والوصف، الحكايات والأخبار، الرسائل والأشعار، وعلى هذا جعلها المؤرخ نصا تاريخيا فيه كثيرا من المعلومات المتصلة بالبلدان المزارة، وجعلها الجغرافي مصدرا يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مر بها، كما يجد فيها الباحث الاثنوغرافي كثيرا ما يود معرفته عن ثقافة الذات التي يحلها الرحالة بمقارنتها بثقافة الغير، ويجد فيها الدارس الأدبي أنماطا أسلوبية، وأنواعا أدبية أفرزتها ظروف اجتماعية وثقافية عاش الرحالة في أحضانها.

تعد كتب الرحلات من أهم المصادر العلمية والأدبية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي الحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية وذات فائدة كبيرة، فأعمال ابن بطوطة وابن حوقل وماركو بولو وارنست همنجواي ورفاعة الطهطاوي وأبوراس الناصري والتي هي محور دراستنا، كلها خلاصات رؤى لوقائع تاريخية، وحقائق جغرافية في مرحلة زمنية معينة، وهناك من الرحلات من تعدت ذلك إلى دراسة الثقافات الاجتماعية كاللغة، والعادات والتقاليد بعناية خاصة، كرحلة البيروني مثلا⁽⁴³⁾.

إذا كانت المصادر التاريخية التي أتسمت مضامينها بالزوايا السياسية والعسكرية والاقتصادية في المقام الأول، تسد جانبا له شأنه في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، فإن المؤلفات الرحلية تضمنت إشارات قيّمة على الأصعدة الحضارية الثقافية العلمية، والدينية العقائدية، ومن مظاهر حياتية متعددة ومختلفة، ضف إلى ذلك، أن أولئك الرحالة قدموا لنا رؤى مهمة لزوايا ندر أن تتردد في كتب الحوليات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، اتفاق الرحالة الجزائريين الثلاث أحمد المقرئ وحسين الورتيلاني ومحمد أبو راس الناصري على ذكر بعض الصفات والعادات المذمومة التي لم تعجبهم أثناء تواجدهم بمصروتونس، كالغيرة والحسد، الغش والكذب، الوشاية والسرقة، إذ تعرض أبو راس إلى سوء معاملة علماء مصر له حينما شكّوا في إجابته، في حين يذكرون صفات حميدة كالكرم وحسن الضيافة عند أهل الشام.

إن كتاب "فتح الإله" لأبي راس الناصري يعتبر فن من فنون السير، ورحلته عبارة عن سيرة ذاتية وعلمية لحياته، حيث سجل فيها كل ما أثر في تكوينه العقلي وتطوره الفكري، والأدب العربي قديما كان أو حديثا يحفل بالكثير من هذا النوع كالبيروني والسيوطي مثلا، وفي ذلك يصف محمد بويجرة

رحلة أبي راس بـ"النص الذي تجسدت فيه صورة معاناة كاملة، وتبلورت في مضامينه جملة القضايا التي تشكل همًا وجوديًا، وآمال مكبوتة كان الشيخ أبي راس يبغى تحقيقها على أرض الواقع". كما يلاحظ أن رغبة التفوق والتجاوز عند أبي راس الناصري لعبت دورا أساسيا في دفعه نحو الاعتلاء والتعلم، وجعلته يشدّ الرّحال إلى كل مكان يعرف أن به عالما يمكنه أن يأخذ عنه شيئا ذا فائدة، كما كانت لقاءاته مع العلماء غنية بالاستفسارات والنقاش والحوار، وكان أبو راس دائما هو صاحب الرأي الصحيح، وهو الذي يقنع محاوريه⁽⁴⁴⁾.

فإذا ما حاولنا تحليل نصوص رحلته لاستخلاص أهميتها وقيمتها و دلالاتها النفسية، نجد أنه يعكس لنا بصورة جلية كافة انفعالاته وانتماءاته الإسلامية العربية كرجل مسلم عربي عندما يقف موقف شيخه عبد الله الشرقاوي من الحملة الفرنسية على مصر، حيث يتغير النص إلى مشاعر مضطربة عندما يستشعر مدى السيطرة والإهانة التي لحقت بالمصريين لما ألزم الفرنسيون المسلمين بدفع المحبوب(نوع من الضرائب تدفع نقدا)، فيصف نابليون بوناپرت بالطاغية، والفرنسيين بالكفرة، وأعمالهم بالحقيرة والذليلة. وكوطني جزائري، حينما سمع بخبر فتح وهران وهو بتونس قافلا من رحلته الثانية، فعجل العودة إلى أرض الوطن للاشتراك في الجهاد ضد الأسبان، حيث اعتبر فتحها حدثا هاما عوّض المسلمين خسارة الأندلس، وقد ساعده على ذلك التوضيح أنه لا يوجز عباراته بل إنه يفصلها، ويقدم تصوراتة العقلية وأحاسيسه النفسية الصادقة⁽⁴⁵⁾.

وعلى غرار القيمة العلمية لرحلة أبي راس والتي هي سجل لمختلف المعارف والأفكار المتداخلة المتشابكة، والقيمة الأدبية بارتفاع أسلوب كتابتها، ورقمها إلى عالم الخيال الفني، تمثل صورة تبرز المنحى النفسي الذي كان يمر عبره أبو راس، والتوهج الروحي لفرض الذات بالقدرات العلمية، وهنا تتداخل التاريخانية بالتاريخ عند أبي راس الناصري، فالتاريخانية تؤمن بأن التاريخ هو العامل المؤثر في أحوال البشر، وتروم رؤية ثقافية واقعية، تبلورها ممارسة تمثل الماضي، بهدف التحرر التدريجي للإنسان عن طريق جدل ثقافي ومناظرة علمية، هذه الأبعاد لا يستوعبها إلا الفكر التاريخي. على هذه الأرضية تضع التاريخانية الإنسان(أبو راس الناصري) في قلب العملية التاريخية، إذ تستحضر

الماضي بشكل مستمر لتستمد منه مقولات جاهزة، ليس للذكرى، لكن لإحيائها وتحقيق تغيير بواسطتها⁽⁴⁶⁾.

ومهما يكن من عيوب في الرحلة من حيث الخلط والتكرار، وكثرة الاقتباس غير المنظم من طرف المؤلف، فإن الرحلة تحتوي على معلومات تاريخية ذات أهمية، لأن الرحالة ليسوا وسطاء، بل هم شهود عيان، وبالتالي فهم أحد المصادر التي تعتمد في الدراسات والبحوث الأكاديمية خاصة.

خلاصة:

لما كانت الرحلة ضرب من ضروب النشاط البشري تمتد جذورها الى بدايات الجنس البشري، فقد رحل الجزائريون كغيرهم من مكان لآخر، ومما يلاحظ في تاريخ الثقافة، أن أدب الرحلات في الجزائر ازدهر في الفترة التي اعتراها الجمود والتأخر في مختلف الجوانب الثقافية منذ القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، واشتدت في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وقد كان ذلك دافعا لعلماء تلك الفترة (الورتيلاني-ابن حمادوش-ابو راس الناصري) الى الرحلة لتحصيل العلوم في طريقهم الى الحج وتدوين رحلاتهم، وما رأوه فيها ومن قابلوه واخذوا عنه من العلماء، وهي بذلك أشبه بوثيقة علمية تشهد لهم بما حصلوه من علوم ومعارف. وإذا كان الرحالة الجزائريون اسهموا مساهمة كبيرة وواضحة في الكتابة التاريخية، ولا سيما خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي والذين تعمقت صلاتهم بالأراضي المقدسة للأسباب التي ذكرناها سابقا، إلا أنهم وبالقيااس الى كُتاب الرحلات المغاربة كانوا قليلي الانتاج، ولعل ذلك راجع الى أن عددا من العلماء الذين رحلوا لم يعودوا الى الجزائر ليدونوا ما كتبوا.

إن القيمة العلمية والأدبية للرحلات موضع دراستنا تتمثل في موادها من أساليب ترتفع بها الى الكتابة التاريخية، وترقى الى مستوى المعرفة العلمية، وإلى عالم الخيال، وهذا ما تألق فيه الرحالة المغاربة بصفة عامة، وتفوقوا فيه على الرحالة المشاركة كما وكيفا على نحو ما نجد في العشرات من الرحلات المغربية والأندلسية التي فيها المقتضب وفيها المسهب، وفيها المنثور والمنظوم، وفيها الفصيح والعامي، حتى أن كراتشوفسكي كان على حق عندما لاحظ أن المغاربة أحرزوا درجة سبق في أدب الرحلات.

الاحالات والهوامش:

- 1- عبد الرحمن بن زيدان، "تحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناش"، ج1، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص: 33.
- 2- حسين الورتيلاني، "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" دار الكتاب العربي
- 3- عبد الهادي التازي، "رحلة الرحلات - مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة"، ج1، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، 2005، ص: 375.
- 4- محمد بن ميمون، "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص: 78.
- 5- حسين الورتيلاني، المصدر السابق، ص: 290.
- 6- نفسه، ص: 24 وما بعدها.
- 7- كمال الدين الأذفوي، "الطالع السعيد الجامع اسماء نجباء الصعيد"، ترجمة: أمين عبد العزيز، مطبعة الجمالية، ط1، القاهرة، 1914، ص: 4-5.
- 8- ليفي بروفنسال، "مؤرخو الشرفاء"، تعريب: عبد القادر الغلاي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص: 206.
- 9- مصطفى السباعي، "السيرة النبوية دروس وعبر، منشورات المكتب الإسلامي، ط8، بيروت، 1985، ص: 16.
- 10- حسين الورتيلاني، المصدر السابق، ص: 87.
- 11- كراتشوفسكي، "تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1987، ص: 293 وما بعدها.
- 12- حسني محمود حسين، "أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1983، ص: 08.
- 13- حسين الورتيلاني، المصدر السابق، ص: 353-354.
- 14- للمزيد من المعلومات ينظر: محمد الحضيكي، "الرحلة الحجازية"، ضبط وتعليق: عبد العالي مدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث المغربي، ط1، المغرب الأقصى، 2011، ص: 186، والحسن الشاهدي، "أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني"، ج1، منشورات عكاظ، المغرب الأقصى، 1990، ص: 540.
- 15- عبد الرزاق بن حمادوش، "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 29.
- 16- نفسه، ص: 226.
- 17- أبو القاسم سعد الله، "الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري"، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982، ص: 39.
- 18- نفسه، ص: 40.
- 19- فرانز روزنتال، "مفهوم التاريخ عند المسلمين"، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1983، ص: 57.
- 20- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 97.
- 21- نفسه، ص: 235.
- 22- نفسه، ص: 126.
- 23- شهاب الدين النويري، "نهاية الإرب في فنون الأدب"، ج14، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، القاهرة، ص: 92.
- 24- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 264.
- 25- نفسه، ص: 29.

- 26- سحنون النونشريسي، "تحرير المقال في الحمد لله والصلاة والسلام على سيد الارسل"، تقديم وتعليق: بشير ضيف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2009، ص: 37.
- 27- محمد الحميدي، "جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس"، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ط3، مصر، 1989، ص: 327.
- 28- عبد الرحمن بن خلدون، "المقدمة"، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د ت)، ص: 434.
- 29- محمد نوري، "الروايات التاريخية في كتابات الرحالة المسلمين في العصر العباسي بين الاسطورة والحقيقة"، مجلة أبحاث، مج11، ع01، منشورات كلية التربية الاسلامية، جامعة الموصل، العراق، ص: 251- 265.
- 30- علي المسعودي، "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج4، المكتبة العصرية، لبنان، 1988، ص: 12.
- 31- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص: 31.
- 32- نفسه، ص: 136.
- 33- نفسه، ص: 140.
- 34- أحمد الشماخي، "كتاب السير"، ج1، دراسة وتحقيق: محمد حسن، دارالمدار الإسلامي، ليبيا، 2009، ص: 15.
- 35- أبو راس الناصري، "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، تحقيق وضبط وتعليق: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص: 25- 27.
- 36- مسلم بن عبد القادر، "خاتمة أنيس الغريب والمسافر"، تحقيق وتعليق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص: 80.
- 37- أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص: 110.
- 38- نفسه، ص: 91.
- 39- عبد الله العروي، "مفهوم التاريخ"، المركز الثقافي العربي، ط4، الدار البيضاء، 2005، ص: 359.
- 40- هناك نوع من الرحلات الأندلسية إلى الجزيرة العربية يسمى بالرحلات الفهرسية أو البرامجية، وكلمتي فهرسة - برمجة من الألفاظ الفارسية المعربة، وهي كلمات مرادفة للمعجم - الثبت - المشيخة في الشرق الإسلامي. ينظر: خالد البكر، "الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية"، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 2003، ص: 22- 24.
- 41- محمد ابن جبير الأندلسي، "اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك"، تقديم: إبراهيم شمس الدين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، ص: من المقدمة.
- 42- عبد الفتاح كيليطو، "المقامات السرد والأنساق الثقافية"، ترجمة: عبد الكريم الشرقاوي، ط1، دار توبقال، المغرب الأقصى، 1993، ص: 33.
- 43- محمد القاسمي، "الرحلة وأدائها في اللغة العربية - دراسة تاريخية"، مجلة الداعي، ع6- 7، منشورات دار العلوم بديوبند، جمادى الثانية - رجب 1434 هـ / أفريل - يونيو 2013، ص: 17 وما بعدها.
- 44- محمد بويجرة، "التسامي والعبقرية عند أبي راس الناصري - قراءة في فتح الإله ومنته وفق المنهج النفسي"، مجلة قراءات، ع01، منشورات المركز الجامعي، معسكر، 2008، ص: 110- 111.
- 45- محمد مؤنس عوض، "الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، مصر، 1995، ص: 13.
- 46- ج. هرنشو، "علم التاريخ"، ترجمة: عبد الحميد العبادي، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط1، لبنان، 1988، ص: 66.